

بارتولد والحضارة العربية الاسلامية

د. سهيل رزق الله

جاء في رسالة بعثها برتولد إلى استاذة روزين في عام (١٨٩١) : « إنه من الصعوبة بمكان ، أن يأتي أحد ما بنتيجة صحيحة أثناء محاولته لدراسة أي قسم من آسيا الوسطى ، إذ اعتمد على نفس المنهج ونفس القوانين المحركة للعملية التاريخية التي طبعت الدراسات التاريخية عن اوروبا . فالدروس العلمية الصارمة حول تاريخ آسيا الوسطى والفترة المتزامنة لها في تاريخ روما ، هذا الذي سمعته في محاضرات البروفسور ماير في غالية ، لم تعد تعني بالمطلوب . إن هذا المنهج الذي أعنيه سوف لن أتابعه . وآمل من خلال أعمالي (إذا بقيت حياً ، معافى) أن أحضر القاعدة العلمية لبروز منهاج علمي آخر »^(١) . جاءت ملاحظة الأكاديمي برتولد ، الاختصاصي الروسي في الدراسات الاسلامية وفي تاريخ آسيا الوسطى وفي عصر الخلافة العربية ، بعد أن رأى أن العين الاستشرافية الاوروبية لم تتمكن من الوصول إلى الحقيقة العلمية ، أثناء تناولها بالبحث والتحليل تاريخ معظم بلدان الشرق . ولحسن حظ العلم والدراسات التاريخية الصينية في هذه المسائل ، تمكن برتولد من العيش حتى عام ١٩٣٠ ، (ولد في عام ١٨٦٩) . وترك تراثاً علمياً ضخماً ، ضم تسعة مجلدات يقع كل منها في حوالى الستائة صفحة . فلقد أثبت نفسه كإختصاصي كبير في الاسلام ، وتاريخ آسيا الوسطى والشرق عامة . وشكّلت أبحاثه نقطة مشرقة في الدراسات الاسلامية ، ميّزتها عن غيرها من الدراسات الغربية المتأثرة بمنهج أنصار « المركزية الاوروبية » . إذ إنها جاءت قوية في منطقها - قلباً تجد عبارة أو حتى كلمة في غير موضعها - وأمانة للحقائق التاريخية - اعتمدت على المراجع الأصلية في اللغات العربية والفارسية والتركية والمنغولية والتتية - ، وموضوعية في تحليلاتها ، خالية من العصبوية الاقليمية الاوروبية ، متحمسة للجوانب المضيئة في الحضارة العربية - الاسلامية . فلقد اعطاها مكانتها الحقيقية دون أية « رتوش » . وشاملة في تناولها للمادة المدروسة ، فلم تقف أثناء تناول تاريخ آسيا الوسطى والاسلام والخلافة العربية ، عند مناطق تواجدھا بل دُرست بالمقارنة مع تاريخ البلدان الأخرى . كذلك درس برتولد الاسلام وحضارته كمرحلة من المراحل التاريخية التي رافقت مسيرة التطور الحضاري على الأرض ، وتوقف عند

الإضافات الجديدة لهذه المرحلة، من قيم ومثل جديدة تركت بصماتها على تطوّر الثقافات الأخرى التي تلتها. إن تأريخ الشرق، وبخاصة تأريخ آسيا الوسطى، مرتبط بشكل وثيق باسم برتولد، فلقد بدأ بدراسة بعض القضايا المحددة المتعلقة بتاريخ غيرغيزيا وتركمانيا؛ وتوسّع فيما بعد، ليطال تاريخ آسيا الوسطى والشرق الأوسط بما فيها تاريخ الاسلام والخلافة العربية، وعلاقة هذه المناطق بأوروبا والصين. هذه الاهتمامات الواسعة، دفعت بالأكاديمي والمستشرق الكبير هار إلى القول: «لم يصل أيّ من المستشرقين والمؤرخين في أوروبا إلى المرتبة التي وصلها برتولد. ودراساته عن تاريخ الغرب لا تقل أهمية عن تاريخ الشرق»^(٣).

لقد امتدت شهرته بين أوساط المستشرقين في الغرب عامة. وكانت له مكانة ملحوظة بين أبرزهم، أمثال المستشرق الفرنسي بيليو، الذي قال عنه: «معرفة الواسعة، وعقله الثاقب والدقيق، وشمولية موضوعاته وتنوعها، جعلته يحتل مكانة مرموقة لم يصل أيّ منّا إليها. كما أن نقاوته وعدم تحيّزه وشهامته، كانت على مستوى كبير من سمو، كما هي الحال في عمله كعالم»^(٣).

وفي مذكرات المستشرق الانكليزي المعروف أ. دينسون روس، كتب بعد وفاة برتولد: «يمكن القول وبجراحة، إنه، مع موت برتولد، خسر العالم أكبر طاقة علمية في تأريخ الاسلام»^(٤).

بدأ برتولد دراساته الاسلامياتية بمقالاته: «الاسلام المعاصر ومهاته» - (١٨٩٤)، «العلم الاسلامي في مكة» - (١٨٩٥)، التي تضمنت استعراضاً علمياً مبسطاً للقارىء. فعلى الرغم من الدقة العلمية وصحة الوقائع والأسماء والاستنتاجات، لم يتجرأ برتولد للنزول على القارىء من موقع الاختصاصي في الاسلام، فلم يعد إلى هذا الموضوع إلاّ بعد عشرة سنوات من إصدار مقالاته الأولى. بعدها، بدأ يحلّل ويقوم الاسلام، عبر تجلياته ومراحلته المختلفة؛ وتمثّل هذا في الدراسة الهامة: «الأفكار الشيوقراطية والسلطة المدنية في الدولة الاسلامية». لقد تناول برتولد في هذه الدراسة البنية الايديولوجية للسلطة الاسلامية، منذ الخلافة العربية الأولى وحتى أفول العصر العثماني، وسرعان ما ترجمت إلى الالمانية والانكليزية والفرنسية والتركية. دخل مؤلفها من خلالها الدراسات الاسلامياتية العالمية من موقع العالم، المتين منهجياً والدقيق في استناده إلى المراجع الأصلية. فهو الذي قال عن نفسه، في مقالة نشرها عن خبرته الأكاديمية: «في الحقل الذي أعمل فيه، لم أشعر بوجودي إلاّ عندما أجلس على مكتبي وأمامي المراجع الأصلية»^(٥). بعدها، قام بنشر مقالات مختلفة ومتنوعة عن تاريخ آسيا الوسطى، سوف لا نتوقف عندها، مركّزين على دراساته العلمية في الاسلام والحضارة العربية. وفي عام (١٩١٢)، نشر بحثه الهام «الخليفة والسلطان». في هذا العمل، ظهرت مواد علمية ووقائع تاريخية جديدة ليس للقارىء الروسي وحسب، بل للقارىء الأوروبي عامة. وأثارت استنتاجاته، التي توصل إليها، ضجة بين المستشرقين؛ فلقد ثبت بالوقائع والبراهين المنطقية بأن ما يسمى بتسليم الخلافة الطوعي أثناء احتلال مصر،

للسلطان التركي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ما هي إلا خرافة مصطنعة لا تستند إلى أية حقائق تاريخية. بعد الحرب العالمية الأولى، أعاد تنقيح هذا الكتاب، وتم نشره، ومن ثم ترجمته إلى لغات أوروبية متعددة. بعد ذلك وحتى عام (١٩٢٢)، أولى برتولد لتحليل الاسلام وتاريخه أهمية خاصة. فلقد كان يعتقد بأن الأدبيات الروسية لم تشهد حتى عام (١٩١٢) أية مراجع علمية موضوعية عن الاسلام، ويقول بهذا الصدد: « عن الاسلام كدين، لم يوجد حتى الآن أي عمل شمولي في اللغة الروسية، يمكنه أن يخطو بالدراسات العلمية في هذا الموضوع ولو خطوة إلى الامام »^(٦).

لقد تم إصدار « الخليفة والسلطان »، في الوقت الذي كان يعمل برتولد في هيئة تحرير مجلة « عالم الاسلام »، وهذه المرحلة كانت فترة بروز موهبة برتولد كعالم اختصاصي في الدراسات الاسلامية، إذ وضع أمامه في المجلة مهمة إيصال جوهر الاسلام، وبشكل موضوعي، إلى القارئ الروسي. وقد تناول تاريخ الحضارة العربية - الاسلامية بمقالات افتتاحية عدة، وتوقف عند أهم الحركات السياسية في الإسلام، وأولى اهتماماً خاصاً للحركة البوذية في ايران. إذ أضاف إلى أبحاث براون وغولتسهر دراسات جديدة عن هذه الحركة، وأشار - ولأول مرة في تاريخ الدراسات الاسلامية - إلى أن « تحليل واستقراء الحركة البوذية كظاهرة تاريخية، لم يصل إلى التصور الشمولي العام، ما لم يتم البحث في انعكاساتها المادية والاجتماعية الملموسة، وبالذات الاقتصادية، التي أدت إلى انتشار ونجاح هذه الحركة في ايران في القرن التاسع عشر »^(٧). ففي تقويمه للإسلام والمراحل التي مر بها، أرسى برتولد قاعدة علمية لدراسة هذا الموضوع، لم تنحصر فائدتها على الباحث والقارئ الروسيين، بل دخلت ومجدارة العقل الموضوعي الاستشراقي الغربي. وكانت الامتداد الايجابي للدراسات القيمة، التي قام بها غولتسهر ودوزي وروزين وغيرهم. ولعل أهميتها تكمن في أنها جاءت لترسي بداية نقدية جادة لدراسات هؤلاء العلماء الاوروبيين وغيرهم، في الحضارة العربية - الاسلامية؛ ولتدخل عمقاً في تحليل العقل « المركزي الاوروبي » مفندة « ستريوبتياته » غير العلمية حول الاسلام، وحول العقل الشرقي، ونمط حياة الانسان الشرقي بشكل عام. رغم أنه اعتبر كرومير السياسي والمستشرق الانكليزي مؤسساً لعلم الدراسات الاسلامية في أوروبا، فقد نقد أفكاره الملخصة في مؤلفه « تاريخ الأفكار السائدة في الاسلام ». ولم ينف عنه صفة الانحياز للعصبوية الاقليمية الاوروبية من جهة أخرى، كان يرى أن الجانب الضعيف في منهج كرومير، يتلخص في تركيزه على دور الأفكار في صنع الاسلام، دون أن يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى العوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، التي ساهمت في انتشار حضارة العرب ودينهم أو في ركودهم. ويؤكد برتولد حول هذا الموضوع، مشيراً إلى « أن تجسيد الأفكار في الحياة وتطور العملية التاريخية لا يرتبطان فقط بتطور الأفكار. فعدم ربط هذه الروابط الفكرية بالعوامل الحياتية لجمهور الشعب، يبقي هذه الدراسات ناقصة غير شاملة »^(٨). ويتوقف عند الدراسات

الأخرى حول هذه المواضيع، فيؤكد على أهمية أبحاث كل من كيتاني وبيكر وليننس وغيرهم، الذين ركّزوا على الأرضية الدنيوية للإسلام، وتأثيره القوي على إنتاج الثقافة المادية والروحية للشعوب التي اعتنقته، في كلٍّ من آسيا وأفريقيا الشمالية^(٩). بيد أن برتولد كشف الجوانب غير العلمية والخطرة في أبحاث الأب الفرنسي المستشرق ليننس، الذي حاول - من خلال تركيزه على العامل الجغرافي والتغيرات المناخية التي تطرأ على البنية - أن يثبت بعض الأفكار العنصرية، كذلك التي تقول بنحوم العقل الشرقي الاسلامي، وبجبه وتعلقه بالتقاليد والأفكار الموروثة منذ القدم، وبعدم قدرة الانسان القاطن في مناخ الصحارى الحار على الخلق والإبداع. فأثبت أنه، مع توسع العرب وازدهار تجارتهم، اخترعوا العديد من النظريات العلمية في الكيمياء والجبر وعلم الملاحة البحرية وغيرها... فاجتيازمهم البحار والصحارى، حلهم على أن يجيدوا معرفة الجغرافية الفلكية. فلقد اخترعوا المراصد الأولى في العالم، في كل من سمرقند ودمشق وبغداد والقاهرة. وفي الوقت الذي تطوّر علم الجغرافية الفلكية (لاحظ العلامة ابن خلدون)، كان النصارى في أوروبا عاجزين عن تعوم خشبة في بحر الروم. وفي معرض تحليله ونقده للدراسات الاسلاماتية في الغرب يخلص برتولد إلى القول: «من الضرورة بمكان تركيز الانتباه على كل الظواهر الثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها، فهي، إلى جانب الأسس الدينية للحضارة الاسلامية، حدّدت وتحدّد الجوهر الفعلي للحياة الشرقية ولطموحات ومثُل أبرز شخصيات الاسلام»^(١٠).

بعد عام (١٩١٦)، انصرف برتولد لتأليف كتيّبات علمية مبسطة عن الاسلام والحضارة العربية. ففي عام (١٩١٨)، أصدر كتيّبه الأول «الاسلام»، الذي يقع في (٦٠ صفحة) من الحجم المتوسط. وتلاه كتابه الهام الذي عنوانه بـ «الحضارة الاسلامية»، وبعده صدر كتاب «عالم الاسلام»؛ هذه الكتب الثلاثة، لخصّت وكثّفت معلوماته وتجربته الاكاديمية في الدراسات الاسلاماتية. وما زالت حتى الآن ترتدي أهمية علمية ملحوظة. ولقد جمعت هذه الكتب، إلى جانب مقالات وتعليقات أخرى، تقوم أبحاث أهم المفكرين وللمستشرقين الذين تناولوا تاريخ الحضارة العربية - الاسلامية، جُمعت كلها في المجلد السادس من مؤلفاته التسع.

في كتابه «الاسلام»، يعطي برتولد صورة بانورامية عن الأسباب والحشيات التاريخية التي رافقت ظهور الاسلام وانتشاره، ويحلّل فيه البنية الايديولوجية للإسلام، كشكل من أشكال الوعي الشرق أوسطي للحياة، وطرح علاقة الانسان بالكون وبأهم عوامل تكونه وتطوره. كما أنه يجري مقارنة ثقافية عامة بين خصائص الوعي الاجتماعي الشرق أوسطي، وبين الحياة الثقافية والروحية لاروبا، وذلك منذ القرن السابع وحتى أوائل القرن العشرين. هذا، وفي معرض مناقشته للعلاقة بين الشرق والغرب، يرد برتولد على أفكار الشاعر الاوروي كيبيلنغ القائل: الشرق شرق، والغرب غرب. أبداً لا ولن يلتقيا^(١١).

هذا الموضوع الذي طُرِح على مر العصور، كان موضع نقاش حاد بين الفلاسفة والمؤرخين ورجال الفنون.

وعلى الرغم من التأكيد دائماً على أن الالتقاء والتفاعل كان موجوداً دائماً بين حضارات العالم أجمع، فكل ثقافة أغنت الأخرى وأضافت إلى ما تبعها إسهامات جديدة في كل أنواع الفنون والعلوم، على الرغم من هذا، ما زال سائداً - كما يشير برتولد - الاتجاه الذي يحتكر لنفسه أحادية تأسيس الحضارة وقيادتها، هذا الذي يهيمن على تفكير معظم الذين يكتبون عن تاريخ الحضارات في أوروبا. فيبين برتولد: «أن الشرق القديم ترك آثاره القوية على الثقافة الاغريقية؛ والثقافة الاغريقية التقت وأثّرت على الحضارة العربية - الاسلامية؛ والحضارة العربية - الاسلامية ساهمت في إرساء أهم معالم النهضة الأوروبية. فالاسلام، أظهر خلال قرون بأنه محب للحرية، منادٍ بالأخوة والعدالة. صحيح أن في الاسلام، كما هو الحال في التلمود والعهد القديم والجديد، الكثير من التعامل التي لا تتطابق مع بعض منجزات العلم، وتعيق أحياناً التقدم الاجتماعي؛ بيد أن الاسلام، كفوء - كما أثبت في الماضي - بأن يتأقلم مع الظروف الجديدة»^(١٢).

في كتاب «الاسلام»، يحلل هذا الدين ليس في إطار النظرية فقط - فلم يجد «الفكرة» عن الواقع - بل إنه حاول أن يستقرى الأفكار الاسلامية المجسدة على أرض واقع الشعوب الاسلامية. فهذه المحاولة، كانت الأولى من نوعها في الدراسات الاسلامية الأوروبية. لذلك، أماننا عمل جديد أحدث تحولاً نوعياً في الدراسات الاسلامية، فلقد وضع البداية العلمية الجديدة لأبحاث موضوعية لاحقة. وعلى حد قول الاكاديمي كراتشوفسكي «إن الوقائع الجديدة التي طلع بها برتولد في كتاباته عن الاسلام، تشكل ظاهرة جديدة في تحليل هذا الموضوع. وهي إن دلت على شيء، إنما تدل على سعة معلومات هذا العالم، وعلى تعمقه في دراسة الاسلام، بعد اعتماده على المصادر الأصلية؛ وهذا ما يعطي للعمل إنجازات إيجابية لم تصل إليها أوروبا حتى الآن»^(١٣).

أما حول أسلوبه في هذا الكتاب، فيتميز بالرصانة العلمية والعدوبة في سرد الافكار وتسلسلها. فكل كلمة في مكانها الطبيعي، وكل فكرة تؤدي معناها بشكل دقيق. ويشير بهذا الصدد كراتشوفسكي: «إن كل جملة عند برتولد لها معنى محدد. وكل فكرة يمكن النظر إليها كاستنتاج علمي موثوق به»^(١٤).

ما هي السمات المميزة لبرتولد، التي جعلته يدخل باب الدراسات الاسلامية العالمية من موقع العالم الموثوق به؟

لعل الجواب على هذه التساؤل يكمن بالتزامه الصارم بمبدأ التاريخية في العلم، وبعدم ارتكازه على الدراسات الغربية الأخرى. فهناك العديد من الباحثين لا يكتفون أنفسهم عناء التنقيب عن المراجع الأصلية، فيأخذون عن أسلافهم ما كتب عن هذا الموضوع أو ذاك؛ وإذا كان السلف قد طلع باستنتاجات غير علمية، فتكرّر عند خلفه. وهكذا، تتحول الحقائق التاريخية إلى ستريوتيبات. والستريوتيبات مع تكرارها عند أكثر من باحث، تكاد تتحول إلى قناعات ثابتة في ذهن الرأي العام، مما يشكل في النهاية عائقاً جديداً أمام الوصول إلى الحقيقة

العلمية، وأمام انفتاح إنساني متكافئ بين ثقافات الشعوب، بين حاضرها ومستقبلها. أمّا برتولد، فلقد تميّز عن معظم الذين عاصروه. إذ إنه كان يعتبر المراجع الأصلية في لغاتها الأصلية، المادة الوثائقية الأولى، لبني على أساسها تحليلاته واستنتاجاته. درس في كتابة «الاسلام» كل العوامل التي أدت إلى انتشار هذه الظاهرة، التي أضحت ترتدي طابعاً عالمياً، وقارن هذه القفزة النوعية الجديدة في تاريخ شعوب الشرق مع الحضارات التي كانت قبلها والتي رافقتها في أوروبا والصين. ويؤكد، بالاعتماد على الوقائع التاريخية، بأن العلاقة بين أوروبا والعالم الاسلامي لم تنقطع أبداً، فلقد كان للحضارة الاسلامية الدور الأهم في التأثير على أوروبا القروسطية. إن الأمانة للتأريخ، والتأكيد على حقائقه ووقائعه، كانت السمة المميزة للظاهرة في كتابه «الاسلام»؛ غير أنه تنبغي الإشارة إلى أن الكتاب لم يدخل في تحليل الدين الاسلامي من الداخل، فلم يتناول كافة شعبه ومِلله. فلقد أعطى لوحة موضوعية شمولية عامة، وهي المحاولة الأولى كما ذكرنا، في تاريخ الدراسات الاسلامية في روسيا، وحتى في الاتحاد السوفياتي.

استمر برتولد في هذا المنهج في كتابه «الحضارة الاسلامية»، فالمهمة المطروحة أمام هذا الكتاب، كانت أشمل من المحاولة السابقة، فهي الدراسة الثانية حول هذا الموضوع، بعد كرومر الذي أعطى تصوّراً مركزياً أوروبياً عن تاريخ الحضارة الاسلامية. فالمادة الوثائقية القليلة من مخطوطات وأثار أركيولوجية، إلى جانب منهج كرومر الذي جاء ليخدم السياسة الانكليزية في منطقة الشرق الأوسط، أعطى لأبحاثه صفة متميزة للثقافة الغربية، التي كوّنت تصوّرات مشوّهة غير واقعية عن تاريخ الشرق عامة. والبحث الآخر، الذي قام به المستشرق الالماني المعروف ميتس^(١٤)، انحصر في منطقة ضيّقة، شملت مرحلة تاريخية محددة، وركزت على مسألة صحة أو خطأ إطلاق صفة «النهضة» على مجمل معالم الحياة الثقافية والعلمية في القرن العاشر. أمّا دراسات هيل الالماني أيضاً، فقد كانت محصورة في إطار تاريخ الاركيولوجية^(١٥). لذلك، فإذا شكّل برأينا كتاب برتولد «الاسلام» نقطة البداية الصحيحة في دراسة هذا الموضوع، فإن كتابه الثاني «الحضارة الاسلامية» طوّر هذه البداية ليؤسس حجر الزاوية السليم في الدراسات العلمية، حول نشوء وتطور الحضارة الاسلامية، وتفاعلها مع ما سلفها وما عاصرها.

ففي مقدمة هذا الكتاب، يتناول الاكاديمي برتولد الستريوتيبات المشوّهة، التي تكدّست على مر العصور حول كفاءة هذا الشعب أو هذه المنطقة في صنع التقدم والحضارة، وحول ثبات التخلف، وعجز شعب آخر أو منطقة جغرافية أخرى في دفع عجلة التقدم إلى الأمام. فيتناول هذه الكليشيهات من عصر الفيلسوف اليوناني أرسطو، الذي كان يعتقد بأن الاغريق وحدهم دون غيرهم من الشعوب الأوروبية قادرون على صنع التقدم الحضاري. بينما شعوب أوروبا الباردة تتميز بالركود الدائم؛ وعلى حد قول الفيلسوف اليوناني، فأسيا والقسم الشرق - أوسطي

بخاصة، يتميز بالقدرة على الإبداع وعلى صنع الحضارات العريقة. مع التأكيد على وجود حضارات عريقة ما زالت تدهش العالم في كل من اليونان والشرق الأوسط، يبين برتولد خطأ فكرة أرسطو البعيدة عن الرؤية العلمانية التاريخية. فيشير إلى حضارة روما وبيزنطة اللتين خلقتا الحضارة اليونانية، وأعطتا نموذجاً جديداً قيماً من الثقافة إلى حضارة روما وبيزنطة اللتين خلقتا الحضارة اليونانية، وأعطتا نموذجاً جديداً قيماً من الثقافة المادية والروحية. وجاءت بعدهما الحضارة العربية - الإسلامية التي تفاعلت مع تراث إيران الثقافي، ومع حضارة بيزنطة، واستطاعت أن تضيف مساهمات جديدة في العلوم والفنون، تركت تأثيرها على مجمل مسيرة التقدم الانساني. فالحضارة، في تاريخ تكونها وتطورها، لم تتمركز أو تتمحور لا في أوروبا ولا في آسيا في كل الازمان. فلكل عصر خصائصه وإفرازاته. ويخلص إلى القول « بأن العلم أثبت أن السبب الأساسي المحرك للتقدم أو للتخلف، للتفاعل والإغناء المتبادل بين الشعوب أو للركود وانهيار الحضارات، لا يرجع إلى الخصائص العرقية أو الدينية ولا إلى الظروف الطبيعية، بل إلى مجمل الظروف المعيشية والتاريخية التي رافقت حياة هذا الشعب أو ذاك. فإن تقدم أوروبا على غيرها ما كان يحصل، لولا تراكم مجموعة من العوامل التاريخية السابقة، ولولا تفاعلها وتأثيرها بالشعوب والأمم الأخرى. وإن تقدم الإسلام وانتشاره ما كان ليحصل أيضاً لولا تفاعله مع المسيحية، ومع التراث الثقافي لشعوب الشرقين الأدنى والأوسط. يضاف إلى ذلك عنصر هام، وهو أن كل مرحلة تاريخية كان يتحكم فيها هذا الطرف أو ذاك بالمفاصل الأساسية للتجارة العالمية كانت تزدهر فيه معالم التقدم. وأوروبا لم تحتل المرتبة الأولى في التقدم الاجتماعي، لو لم تتحكم بالمفاصل والقطاعات الأساسية للتجارة العالمية » (١٥٥).

وفي دراسته هذه عن الحضارة الإسلامية، يبين برتولد بأن التقدم استمر في كافة الميادين، حتى بعد ضعف سلطة الخلافة. فبعد القرن الحادي عشر يبين كيف أن إيران، التي حلت لواء الإسلام، تابعت التقاليد الإيجابية في تلك الحضارة، وذلك ابتداء من القرن الخامس عشر؛ وتجدر الإشارة إلى أن الفترة التي امتدت من القرن الخامس عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر، لم تدرس حتى الآن دراسة دقيقة وعميقة. فمع تطور حركة الاستشراق منذ أوائل القرن السابع عشر، كتابة الآلاف من الأبحاث والدراسات التي فيها الكثير من الستريوتيبات المشوهة عن الشرق، بدأ الشرق والمثقف الشرقي ينظر إلى شرقه وواقعه بعين غريبة. والذي يؤسف له، أنه حتى الآن لم تتوفر لا المخطوطات الأصلية لتلك المرحلة، ولا الكوادر العلمية الكفؤة، الشرقية والغربية، التي تتناول تلك المرحلة بالبحث والتحليل والاستنتاج. كما أن وجود مفكرين نزيهين، أمثال برتولد وغيره، لم يولوا تلك الفترة أي اهتمام ملحوظ. فهذه الفجوة الكبيرة، ما زالت غامضة لدى معظم الباحثين وبالتالي القراء؛ والشيء المتداول عليه، أن الشرق الاسلامي غرق منذ القرن الخامس عشر في سبات عميق... بيد أن بعض الدراسات الغربية والسوفياتية، ومنها أبحاث المؤرخة السوفياتية ساليينسكيا تؤكد على أن نمواً ديموغرافياً واقتصادياً وثقافياً حصل

في المدن الشرق أوسطية، الممتدة على حوض البحر الأبيض المتوسط. مما لا شك فيه، أن تلك المرحلة شهدت ركوداً ملحوظاً للحضارة العربية الاسلامية، وهذا الركود جاء في الوقت الذي تحوّلت فيه أوروبا إلى قوة إقتصادية كبرى، وامتدت سيطرتها لتطال أسواق آسيا وأفريقيا؛ رافق هذا صياغتها لتاريخ أوروبا وآسيا ضمن المنهج البراغماتي، الذي سلكته في سياستها الثقافية حيال العالم. هذا العامل، إلى جانب العوامل الأخرى الداخلية، أدّى إلى انهيار ما يسمى بنظام الخلافة العربية. وحول هذا الموضوع، يشير **هونتسكيو**: «إذا انهارت امبراطورية بنتيجة صرف معركة من المعارك، فذلك لأن ثمة أسباباً عميقة تتيج لهذه الامبراطورية أن تسقط بعد هزيمة واحدة»^(١٦).

مع هيمنة الفلسفة البراغماتية على السياسة الخارجية الأوروبية، قامت حركة الاستشراق لتشكّل إحدى أهم الأسلحة الفكرية بيد أوروبا، وانبرى عدد من المستشرقين ليؤكدوا على أن أوروبا هي مركز الثقافة العالمية، منها بدأت الحضارة، وفيها تتطور نحو الأعلى. هذه النزعة الإقليمية، التي أطلق عليها فيما بعد تسمية «المركزية الأوروبية»، تجاهلت وجود حضارات عريقة في كل أنحاء العالم بما فيها منطقة الشرق الأوسط. ولعلّ هجومها كان مركزاً ومنذ البداية على منطقتنا، لأهميتها الاستراتيجية من الناحيتين الاقتصادية والثقافية. ففيها بُنيت أقدم الحضارات وأعرقها، ومنها انتشرت ولمدة ثمانية قرون الحضارة العربية - الاسلامية في بقاع شملت ثلث الكرة الأرضية. فالدورة الحضارية على أرضنا لا تستقر في مكان واحد، فهي تنتقل بين فترة تاريخية وأخرى من منطقة إلى أخرى. ويتحكّم في عملية الانتقال مجموعة من الأسباب الاقتصادية والثقافية والمعنوية، بيد أن الحقيقة التي لا يستطيع أن يدحضها أنصار «المركزية الأوروبية» أو أنصار «المركزية الآسيوية»، هي التفاعل الدائم والتأثير والاعتناء المتبادلين بين ثقافات الشعوب والأمم. وأن الحياة هي للانفتاح الانساني ولسيادة المثل والقيم العادلة والمتكافئة بين البشر. وهذا ما أكد عليه الأكاديمي برتولد في كتابه «الحضارة الاسلامية»؛ فهذا البحث يتألف من الفصول التالية: الشرق المسيحي وأهميته بالنسبة للإسلام - بداية عصر الخلافة والثقافة العربية - بغداد والحياة الثقافية العربية اللاحقة - الحضارة الإيرانية وتأثيرها على البلدان الأخرى - الفتوحات المنغولية وتأثيرها على الحضارة الإيرانية - العالم الاسلامي بعد القرن الخامس عشر. في هذه الفصول، يؤكد على حيثيات التأثير والتأثير الحضاريين اللذين تما بين الشرق المسيحي والإسلام. وما تلا ذلك من تحولات وتغيّرات نوعية طرأت على مسيرة الحضارة العربية - الاسلامية. ويثبت نظريته التي يؤكد عليها دائماً، وهي أن الاعتناء والتفاعل الحضاريين لم يتوقفا لحظة بين شعوب منطقة الشرقين الأوسط والادنى. بيد أن صغر حجم الكتاب لم يمكّن مؤلفه من إعطاء تصوّر شامل ودقيق للمراحل المختلفة التي رافقت الحياة الثقافية للحضارة العربية، ولم يتوقّف بالتفصيل عند الأشياء الجديدة التي قدمتها للانسان، ولا عند تأثيرها على حضارة عصر النهضة الأوروبية. هذان الموضوعان ما زالا حتى

الآن قيد الدراسة والبحث. ويبدو أن برتولد وضع أمامه في البداية مهمة إعطاء لوحة عامة عن تاريخ الحضارة الإسلامية، دون أن يتوقف عند أهم تجلياتها في الفكر والعلم والفن وغير ذلك. كما أن قسماً من الكتاب لا يتصل مباشرة في الإسلام، وهو على الرغم من بعده عن الغوص في خصائص تكوّن هذه الحضارة وتطورها، ارتدى ويرتدي أهمية ملموسة لكل مؤرخ أو قارئ يهتم بدراسة تاريخ الشرق.

مع إصدار كتابه الثالث «العالم الإسلامي»، يكون برتولد قد أكمل ما افتقر إليه مؤلفه «الحضارة الإسلامية»، إذ إنه تناول في فصوله الخمسة، الموضوعات التالية: حول مفهوم العالم الإسلامي، تاريخ العالم الإسلامي كجزء من التاريخ العالمي - التركيبة الانتوغرافية للعالم الإسلامي، مكانة اللغة العربية في الأدب العربي - الأعمال الأساسية المكتوبة باللغة العربية حول تاريخ الإسلام وحضارته - أعمال العلماء الأوروبيين حول تاريخ العالم الإسلامي وحضارته - الكتابات المدرسية المعاصرة والكتابات المدرسية في اللغة الروسية.

لقد أعطت هذه الفصول تصوّراً شاملاً عن تاريخ العالم الإسلامي، ودرسته ليس كحالة خاصة منعزلة عن غيرها، بل كجزء لا يتجزأ من التاريخ العالمي؛ وتناولت أبحاث كلّ من الطبري والشهرستاني والأفغاني وقاسم أمين حول هذه المسائل؛ كما أنها تناولت بالاستعراض والنقد والتحليل أعمال: غولتشيير وآرون ودوزي وسابلوكوف وروزين. وكذلك الكتب المدرسية التي تلخّص في نهاية المطاف أفكار المستشرقين حول تاريخ العرب. وأبدى برتولد في هذا الكتاب تحفظه ونقده للمكانة الضئيلة التي تُعطى لتاريخ العرب وإسهاماتهم في صنع التاريخ الإنساني. وكتاي «العالم الإسلامي»، يُعتبر من الكتب الهامة التي ألفها برتولد. فرغم أن أسلوبه مبسّط، فإن كل فكرة من أفكاره تستدعي الثاني في قراءتها والتمعّن في مضمونها. وهنا، تجدر الإشارة إلى مسألة جديرة بالانتباه، فقد تخالف رأي معظم الباحثين الذين أطلقوا صفة اللغة المبسّطة والمبسّرة على كتبه الثلاثة حتى يتوصل البعض إلى نفي الصفة الأكاديمية عنها. فهي تشكل، برأينا، مادة علمية قيّمة للقارئ المبتدئ وللأختصاصي المجرب في هذه المواضيع المطروحة. كما أنها تخاطب وبلغة ذكية مشاعر القارئ وعقله. فقد يجد القارئ صعوبة في بداية قراءته لكتبه الثلاث، إلّا أنه سرعان ما يكمل المشوار مع الكاتب حتى آخر صفحة. وهذا، يرجع إلى قلة المراجع الرصينة - في عصر برتولد - حول تاريخ الحضارات بما فيها تاريخ الحضارة العربية - الإسلامية. ويرجع أيضاً إلى منهج برتولد الذي يبدأ بالأشياء العامة المعروفة، ويمضي مع القارئ إلى الأشياء غير المعلومة، ليصل به إلى نهاية يكون فيها قد كَوّن حصيلة من المعلومات الجديدة تساهم في توسيع معرفته العلمية، وفي تقرّبه من الحقيقة الموضوعية، التي لها وحدها دون سواها تُكتب الحياة والديمومة.

وفي عام (١٩١٧)، نشر برتولد بحثاً بعنوان «القرآن والبحر»، يتم الاعتماد فيه - ولأول مرة في تاريخ الدراسات الإسلامية في روسيا - على الآيات القرآنية. ويتم تحليلها مبيّناً موقف الإسلام ونبّه محمد من البحر؛ فلقد

كان العرب يستغيثون الله بواسطة البحر. وبعد أن يستعرض برتولد آراء بادر ولينس وهرشفولد ومكادونالد عن موقف الاسلام من البحر، يخلص إلى أن «تصورات محمد عن الله تكوّنت تحت تأثير الفكرة المسيحية عن وحدة الله، لا الفكرة اليهودية. وهي تؤيد كل يوم الأبحاث العلمية عن منشأ الاسلام وتاريخ الدور الاول منه»^(١٧). إلى ذلك، فقد أولى برتولد أهمية خاصة للعلاقة بين المسيحية والاسلام، وكتب حول هذا الموضوع عدة دراسات، أهمها: «كارل الكبير وهارون الرشيد»، «ممثلية روما في بغداد في القرن العاشر»، «تركيا بين الاسلام والمسيحية». وهو في المقالات يتعرض للمراحل التي مرّت بها العلاقات المسيحية - الاسلامية. فبيّن فترات السلام والصداقة بين الطرفين، وفترات العداوة والصراعات الحربية.

وكتب عدة أبحاث عن الخليفة الثاني عمر. فيها يسلّط الأضواء، ولأول مرة، على المعلومات المتناقضة حول شخصيته السياسية الاجتماعية، وبالذات فترة الثلاث سنوات التي حكم فيها، (٧١٧ - ٧٢٠). هذه الفترة مميّزة في تاريخ الخلافة العربية، إذ إنها شهدت تحوّل وتجنّد الدين إلى سلطة مدنية. وشهدت بروز عدد من التناقضات داخل جهاز سلطة الخلافة، أصبحت فيما بعد موضع نقاش وتحليل المؤرخين حتى عصرنا هذا.

كما تناول برتولد في عدد من كتاباته العصر الأموي. وقد انتقصت هذه الكتابات - على حدّ قول بعض المؤرخين - الدقة العلمية، إذ أثارت جدلاً بين المستشرقين والباحثين. ترك برتولد هذا الموضوع لفترة من الزمن، ومن ثم عاد وكتب عنه في «الانسكلوبيديا الاسلامية» مقالة تحت عنوان: «العصر الأموي في الأبحاث المعاصرة»، يستعرض فيها محلاً أهم الدراسات التي كتبها حول هذا الموضوع كل من لينس وبيكر وكيثاني، وغيرهم. بعدها، تناول تاريخ الحركات والانتفاضات السياسية في الاسلام، فكتب بحثاً تحت عنوان: «حول تاريخ الحركات الدينية في القرن العاشر». يحلّل فيه أفكار وتعاليم ابن أبي العساكر، ويشير إلى مصير حركة الخلاج التي انتهت بقمع وإعدام أهم المشاركين فيها. وفي معرض حديثه عن هذه الحركة، تناول آراء المستشرق الفرنسي المعروف لوي ماسينيون عن الخلاج. فلم يتفق معه حول تقويمه لجوهر الانتفاضة، كما أنه أعاب على ماسينيون الاتجاه الصوفي في فلسفته.

أمّا في دراسته: «علماء النهضة الاسلامية»، فيناقش برتولد كتاب المستشرق الالماني ميتس، «Die Renaissance des Islames»، فيستعرض في البداية آراء كل من كراتشكوفسكي وبيكر. فيؤيد الأول وجهة نظر ميتس حول تسمية الازدهار الثقافي في القرن العاشر بالنهضة الاسلامية. أما بيكر، فينكر هذه التسمية، ويعتقد بأن ميتس ضحّم من حجم هذا الازدهار؛ فهذا، حسب رأيه، ما هو إلّا بعث للتراث الهيليني في الثقافة الاسلامية. ويشير بيكر إلى أن كتاب ميتس يخلو من الإشارة إلى وجود ما يُسمّى بنهضة حقيقية، ويحاول

تدعم رأيه هذا بالقول: بأن ميتس لم يتمكن من كتابة المقدمة لمؤلفه، فلقد داهمه الموت قبل إصدار الكتاب . وقد قام بهذه المهمة الناشر، (Reckenehort)، الذي أشار إلى أن كلمة (Renaissance) لم يأت على ذكرها المؤلف إلا في (الصفحة ٢٦٤)، وذلك في معرض إشارته إلى الأدبيات الجغرافية العربية، وفي تقييمه لدور الكندي «eines Hauptver mittlersgrichischer Wissenschaft». ويقول بيكر بأن الناشر أشار إلى أن ميتس لم يكن راضياً عن عنوان كتابه، بيد أنه لم ير أفضل منه^(١٨). كما هو ملاحظ، أن بيكر في تقويمه هذا، ينظر إلى الازدهار الثقافي العربي - الاسلامي في القرن العاشر، بعين «المركزين - الأوروبيين»، فهو يقارن بين النهضة الأوروبية والنهضة الاسلامية؛ ويعتقد بأن الازدهار الثقافي ما هو إلا «ازدهار» أو تكرار لثقافة أوروبا القديمة اليونانية. فالمقارنة، وإن كانت بعيدة عن الرؤية العلمية، فهي أسيرة الرؤية اللاتاريخية للأمر. فلنتفق جدلاً، ولو من باب الشكليات ولتكن أوروبا هي مقياس المقارنة، ولنجر مع بيكر مقارنة ثقافية حضارية بين الشرق الاسلامي وبين أوروبا في القرون الوسطى: ألم يشهد هذا الشرق نموذجاً جديداً للحضارة والتقدم العلمي والاجتماعي؟، ألم يكن هذا الشرق محط أنظار رجالات العلم والثقافة والسياسة في أوروبا؟، فعلى حد قول الباحث السوفياتي المعاصر ارتور سعاديف: «إذا أردنا تلخيص تأثير الحضارة العربية - الاسلامية على أوروبا لوجدناها في مصطلح «Secularization» (العلمنة). فمن المتعارف عليه، أن أية حضارة تتمثل عادة عناصر الحضارة الأخرى، عندما تشعر بحاجة إلى هذه العناصر، وتكون على استعداد لاستيعابها. وقد كان لدى المجتمع الأوروبي الغربي في العصر الوسيط ما يكفيه من التدنُّن والروحانية، في حين نضجت في أحشائه قوى لم يكن ليشبعها هذا الغذاء الروحي، فوجدت في الحضارة العربية - الاسلامية ما يسد حاجتها إلى غير هذا الغذاء. ومن السمات البارزة التي أخذتها أوروبا الغربية عن الشرق الاسلامي، كانت الروح العلمية والاندفاع نحو التمتع بمباهج الحياة (ومنها ما يرتبط عند مونتغمري واط بفن «الحياة الجميلة»). فالتفكير الحر المتفائل الذي جاء عن طريق العرب، والذي تغذَّى من الفلسفة التي بُعثت من جديد، مهَّد الطريق لظهور مادية القرن الثامن عشر»^(١٩).

فهذه حقائق تاريخية لا مجال للتشكيك بها، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، لماذا لا يُنظر إلى هذه النهضة في إطارها التاريخي وفي تجلياتها في ميدان الإبداع الفكري والجمالي والأدبي وحتى الاقتصادي.

أمَّا برتولد، فيرى أن التسمية صحيحة بالنسبة للعالم الاسلامي. وبعدها، يتوقف عند الفصل الثاني عشر من كتاب ميتس، المكرَّس لمفهوم العالم والأديب في الفلسفة العربية - الاسلامية. فيستعرض وجهات نظر المؤرخين المسلمين حول الفرق بين الأديب والعالم؛ فالأديب - حسب رأي الياقوتي - هو الذي يختار الأشياء الأفضل ويجمعهم في هدف واحد. بينما العالم يحاول أن يجد حقل واحد من حقول المعرفة ليجد فيه الكمال. ثم يستعرض برتولد ما توصل إليه ميتس من تصنيف لرجال المعرفة والعلم والأدب، فهناك الفيلسوف والطبيب والشاعر

والخطيب والأديب والفقهاء الذين ساهموا في الازدهار الثقافي . كما أنه يؤكد على حب العرب للعلم ولطلاب « الحديث » و « الأدب » ، وعلى دعمهم السخي لأيَّ جهد يُبذل من أجل دفع حركة المعرفة والعلم إلى الامام . كما يبيّن انشداد رجالات العلم إلى الأعمال التي يقومون بها ، ولا مبالاتهم حيال الملذات الحياتية الدنيوية ، واهتمامهم في بناء قاعات للمطالعة ومكتبات وبيوت لرجالات الفقه والعلم . ويبين تقرب وودّ الوزراء المتنوّرين للمفكرين والفلاسفة .

لقد أولى برتولد اهتماماً خاصاً لنقد التيارات العصبوية الدينية ، لدى بعض الباحثين الذين تجمعوا حول مجلة « التبشير المناهض للاسلام » ؛ فلقد تابع برتولد تقاليد استاذة روزين في نقد اتجاه هذه المجلة ، ومن وراءها من منظري البلاط القيصري والمستشرقين اليهود المتأثرين بالايديولوجية الصهيونية . وفي معرض تقويمه لكتاب المؤرخ الروسي تسفيتكوف ، شن سهام نقده العلمي لكل من يتحيز للعصبوية الدينية وللالتاريخية ، فيشير إلى : « أن الحضارة الاسلامية هي ظاهرة تاريخية ، ليست من البساطة بمكان لكي يتناولها المرء بمقالة أو بحث صغير . فلا يمكن إدراك الحياة المعاصرة للعالم الاسلامي بدون معرفة الماضي . وفي هذا الحقل من المعرفة ، كما هي الحال في أي حقل آخر ، تقتضي الضرورة التوقف عند الانجازات التي توصلت إليها الأبحاث العلمية ، لا التسرع في الاقتباس العشوائي لبعض المقتطفات من الكتب المدرسية . فهذه الحقائق البسيطة لم يدركها للأسف في روسيا إلا عدد قليل من الاختصاصيين »^(٢٠) .

الشيء الذي غاب عن أبحاث برتولد ، هو استقراء وتحليل الظروف التاريخية التي أدت إلى نشوء الاسلام . والذي شكّل ظاهرة تاريخية أدت إلى تحوّل نوعي في حياة العديد من الشعوب الشرقية ، وامتد ليشكّل ظاهرة عالمية . فهذا التحوّل لم يأت إلا بعد تراكم عدد من العوامل الروحية والسياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، التي كانت تعيشها شبه الجزيرة العربية . ولم يتوقف برتولد عند هذه المسألة ، فقد كان محور اهتمامه منصبا على التفاعل السياسي والثقافي بين هذه البيئة وبين سورية المسيحية وإيران واليمن التي كانت تتعايش فيها سابقاً ديانات توحيدية ثلاث . ويقول برتولد إن الصراع الايديولوجي ، الذي تمثّل بين الوثنيين والتوحيديين ، لا يُعتبر كما يظن بعض مفكري الاسلام الدوغمائيين ، السبب الاساسي الذي أدّى إلى نشوء الاسلام ؛ ففي مقالته « مسليمة » المخصصة لهذا الموضوع ، يشير إلى « أن بداية انهيار التيار الوثني حلت دلالات واقعية ، فهي تجسّد وتمثّل على أرض الواقع بداية انهيار العلاقات القبلية »^(٢١) . يصل إلى هذا الاستنتاج دون أن يتوسع فيه ، ويمضي إلى القول « بأن الاسلام يتميز عن كل الأديان بعدم ارتباطه الوثيق بالماضي »^(٢٢) .

هذا الاستنتاج ، يناقض موقف مؤلفه الذي يؤكد على دور الماضي في صناعة الحاضر . كما أن الوقائع تؤكد على العكس من هذا ، فمجمال العلاقات الثقافية والاقتصادية والروحية التي كانت تعيشها شبه الجزيرة العربية ،

شكلت الأرضية التاريخية لنشوء الإسلام . فالكثير من المفاهيم والصور والمصطلحات والوقائع التي جاءت في القرآن، كانت متداولة في هذه المنطقة . بكلمة إن الإسلام شكّل التحول النوعي في الحياة الروحية والمادية لشعب شبه الجزيرة العربية ؛ وكان الامتداد التاريخي الطبيعي لتطور الأفكار الدينية في وعي هذا الشعب . مما لا شك فيه ، أنه كان للعلاقات المتبادلة السابقة واللاحقة بين الإسلام وبقية الأديان والحضارات خارج إطار شبه الجزيرة العربية ، دوراً هاماً في الازدهار الثقافي والاقتصادي ؛ وهذا ما أكد عليه برتولد مراراً . بيد أن العامل الأساسي ، الذي أدّى إلى نشوء الحضارة العربية - الإسلامية ، برأينا هو مجمل العوامل التاريخية الداخلية التي عايشتها الجزيرة قبل القرن السابع .

إن مقالة واحدة عن مكانة برتولد في تاريخ الدراسات الإسلامية ، وموقفه من الحضارة العربية - الإسلامية ، لا تكفي للتوقّف عند كل دراسة والدخول في تفاصيلها وأفكارها ؛ سيّما وأنه كتب المئات من الأبحاث والتعليقات والترجمات حول هذه المواضيع . فلقد نشر في « الانسكلوبيديا الإسلامية » لوحدها (٢٤٧) مقالة علمية عن الإسلام والحضارة العربية - الإسلامية وتاريخ آسيا الوسطى . وكتب (٣٧) عملاً في اللغات الأجنبية معظمها في الألمانية . وترجم له حوالى (٧٨) عملاً [٢٤ إلى التركية ، ١٥ إلى الألمانية ، ١٤ إلى الانكليزية ، ٥ إلى الفارسية ، ٣ إلى العربية وغيرها]^(٢٣) . ولقد تم العثور في أرشيفه ، الذي جمعه العلماء ياكوبوفسكي وكليموفتش وخاليدوف^(٢٤) ، على دراسات جديدة عن النبي محمد ، وعن موقف الإسلام من المرأة ، وعن انتشار الإسلام في المناطق المتاخمة للبحر الأسود . إلى ذلك فقد قام بتحليل وتقويم أهم الدراسات الإسلامية في عصره ، وشارك بنشاط في العديد من المؤتمرات العلمية العالمية حول الإسلام والحضارات الشرق - اوسطية ، التي عقدت في كل من لندن وباريس وبراغ وبتروغراد ولايبزيغ .

لقد صمدت أعمال برتولد أمام عجلة الزمن ، ودخلت عن جدارة السجل الذهبي في تاريخ العلم . وخير دليل على ذلك ، هو إعادة جمع مؤلفاته وطبعها في مجلدات تسع . وفي حدود معلوماتي ، أن الطبعة الأولى نفدت . وهناك تصميم لدى هيئة تحرير الآداب الشرقية ، التابعة لمعهد الاستشراق ، لإعادة طبع المؤلفات مرة أخرى .

حتى الآن ، ما زال اسم وراث هذا العالم الكبير يلمعان بين المستشرقين الغربيين ، المهتمين في دراسة الإسلام وظروف تطوّره وانتشاره . فمعظم دراساته ، ما زالت تثير اهتمام كل الذين يدرسون العام والخاص ، في تاريخ الحضارات ، وحيثيات العلاقة بين الشرق والغرب ، وخصائص تكوّن العقل الشرقي والغربي .

غير أن دراسات برتولد حول الحضارة العربية - الإسلامية ، جاءت لا لتصنع منها رمزاً ونموذجاً ، يمكن الرجوع والركون له في أية أزمة ثقافية وحضارية راهنة ، بعيشها الشرقي في منطقته أو الغربي في إطار حضارته الغربية . بل هي محاولة جادة من قبل عالمٍ تقدمي أوروبي لدراسة إحدى المراحل التاريخية ، التي سُرّت بها

البشرية في القرون الوسطى؛ وذلك من أجل معرفة الذات الأوروبية والروسية، من خلال معرفة تاريخ « الغرب ». كما أنها جاءت لتسلط الأضواء على كل ما هو محب للحرية والانسانية والعدالة. ومن هنا، تكمن أهميتها لأن هذه القيم هي ملك لكل إنسان أينما كان. وهي، وإن كانت في شموليتها تعطي تصوراً عاماً شاملاً، وإن كانت لم تدخل عمقاً في تحليل الشخصية العربية - الاسلامية، فلقد فتحت الطريق أمام دراسات علمية جادة في ميدان الاستشراق الروسي السوفياتي - ميّزته عن الاستشراق « المركزي الأوروبي، الغربي » - بعيدة عن اتجاه الهيمنة الثقافية والاقتصادية، التي كانت المحرك الأساسي والهاجس الأهم للدراسات الغربية عن الشرق. وإننا نعتقد بأن إبراز مؤلفات برتولد يساهم في تقريب الوجه الانساني في الثقافة الغربية عن ثقافتنا وتراثنا. ونعتقد أيضاً بأن لا فائدة من التعامل مع تراث برتولد، ولا مع الجانب المشرق في تراثنا، ما لم يوظف في معركة الحاضر من أجل بناء المستقبل العربي المتقدم اجتماعياً وحضارياً. لذا، فالتعامل مع المخطوطة القديمة أو مع الدراسة المعاصرة، سواء كانت غربية أم شرقية، هو في غاية الدقة؛ فأَيُّ خطأ مقصود أو غير مقصود يؤدي بصاحبه، إما للاستسلام للثقافة الامبريالية وهي الأقوى في عصرنا، أو الرضوخ إلى التاريخ القديم وهو ما يُنعت أصحابه بالاتجاه السلفي. فكلما الاتجاهين لا يؤديان إلا إلى المزيد من تراكم الستريوتيبات المشوّهة، كل منهما عن الآخر؛ ويبعد القارئ عن الحقيقة العلمية، ويجعله يخضع في ظل تطوّر وسائل الاعلام الغربية إلى المادة الصناعية والثقافية التي ينتجها الغرب الأمريكي والاوروبي.

الهوامش

- (١) راجع الرسائل الروسية للاكاديمي روزين، رقم ٢٣١ - ٢٣٢، المتحف الآسيوي التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية، لينينغراد ١٩٢٩. (بالروسية)
- (٢) مار. ي. برتولد، كمؤرخ وعالم. « أخبار أكاديمية العلوم » - موسكو ١٩٣١، رقم ١ - (ص ١٢ - بالروسية).
- (٣) P. Pellios, W. Barthold; - «Toung Pao» TXXVII, 1930, P 459.
- (٤) Sir E. Denison Ross; Obituary Professor Barthold, - «The times» London 26. VIII, 1930.
- (٥) راجع مجلة « الشعلة »، موسكو - تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦، عدد ٤٠، (بالروسية).
- (٦) راجع مجلة « عالم الاسلام » - عدد ١ - ١٩١٢، (ص ٢ - بالروسية).
- (٧) المصدر نفسه، (ص ٤٤١).
- (٧ - مكرّر) A.F. Kpemer, Geschichte der herrschenden Ideen des Islams Wien, 1868.
- (٨) برتولد: « عالم الاسلام » (ص ٧٧ - ٧٨).
- (٩) المصدر نفسه، (ص ٨١).

- (١٠) «عالم الاسلام» - عدد ١ (ص ٧٩، ٨٠)
- (١١) برتولد: المؤلفات الكاملة، المجلد السادس - موسكو ١٩٦٦، (ص ١٣٦ - بالروسية).
- (١٢) المصدر نفسه، (ص ١٣٧).
- (١٣) كراتشكوفسكي. إ.: المؤلفات المختارة، المجلد الخامس - موسكو/لينينغراد ١٩٥٨؛ (ص ٣٥٤ - بالروسية).
- (١٤) المصدر نفسه، (ص ٣٥٥).
- (١٤ - مكرّر) A. Metz, Die Renaissance des Islam, - Heidelberg, 1922.
- (١٥) J. Hell, Die Kultur der Araber, - Leipzig, 1909.
- (١٥) برتولد، ف: المؤلفات، الحضارة الإسلامية - المجلد السادس، موسكو ١٩٦٦، (ص ١٤٦ بالروسية).
- (١٦) راجع، روجيه غادوري: حوار الحضارات - بيروت ١٩٧٨، (ص ١٠٧).
- (١٧) راجع، بندلي الجوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب - دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧، (ص ٢٠١).
- (١٨) راجع، برتولد: المؤلفات، المجلد السادس - موسكو ١٩٦٦، (ص ٦١٧).
- (١٩) راجع، مقدمة سعديف. أ، لكتاب مونتغمري واط: «تأثير الحضارة العربية - الإسلامية على أوروبا»، [الترجمة العربية للدكتور جابر أبي جابر، مراجعة الدكتور توفيق سلوم] - دمشق ١٩٨١، (ص ٣٢).
- (٢٠) برتولد: المجلد السادس، [مصدر سابق]، (ص ١٢).
- (٢١) المصدر نفسه، (ص ٥٥٦).
- (٢٢) المصدر نفسه، (ص ٦٣٠).
- (٢٣) يمكن الرجوع إلى البيليوغرافيا، التي أعدها البروفسور أمينيكوف عن أعمال برتولد الكاملة، هيئة تحرير الاداب الشرقية - موسكو ١٩٧٦، (بالروسية).
- (٢٤) تاريخ دراسة أرشيف برتولد، من كتاب: العلاقات النقدية والتجارية الشرق - أوسطية في القرون الوسطى - دار العلم، موسكو ١٩٧٩، (ص ٢٤٦ - ٢٦٢، بالروسية).